شاعرية العقاد على محك مارون عبود

الأستاذ : لخضر تيبت
قسم الأدب العربي
كلية الآداب و العلوم الإنسانية
جامعة باجي مختار – عنابة (الجزائر)

ملخص:

يتناول هذا المقال بالدرس والتحليل نقد مارون عبود لأدب عباس محمود العقاد عامة، ولشعره بصفة خاصة، فيراه أديبا كبيرا ومفكرا عملاقا، ولكنه يجرده من الشاعرية، ولا يتردد في السخرية منه والتهكم عليه كشاعر.

Résume :

Cet article aborde la critique de Maroun Aboud concernant la littérature de Abbes Mahmoud El Akkad. Et spécialement sa poésie.
Il le voit un grand homme de pensée et de littérature mais il n'hésite pas de critiquer avec ironie sa poésie.

يعد عباس محمود العقاد مفكرا وناقدا بارزا في أدبنا العربي الحديث، وفضلا عن ذلك فهو أديب عصامي، حاز قدرا من العلم و الفهم والتذوق ما جعله يقف إلى جانب ذوي الدرجات العلمية العالية، و يتفوق على بعضهم بما أبدعه في مختلف مناحي الفكر، بفضل مثابرته على البحث والدرس والعمل العقلي المتصل. وهذا ما يذهب إليه مارون عبود، حيث يرى أن العقاد الناثر يعد في طليعة الكتاب المعاصرين له وألمعهم إذ يقول :" العقاد من رؤوس الكتاب العصريين ،وقد يكون قيدومهم وأوجههم، وإن كان تفكيره خير من تعبيره ..." [1].

ويعقد مارون عبود موازنة بين العقاد وعميد الأدب العربي؛ طه حسين، فيرى الأول عربي التفكير والتعبير، وتمتاز كتاباته بالنضج والعمق، بينما الثاني أدبه عالة على الأدب الفرنسي، وأفكاره سطحية لا عمق فيها، وأسلوبه حلزوني مطاط، يطغى فيه المبنى على المعنى [2]، ومقالاته تتصف بالضحالة والثرثرة : " .. وإذا كان في مصر من هو ذو أسلوب عربي خاص بصاحبه فذاك هو العقاد في نثره ، ــ دع شعره البارد ــ فهو عربي التفكير والتعبير بضد طه الذي لا يستطيع التعمق وهو معذور، تقرأ مقالا للعقاد فتعلم أنك أمام رجل مفكر، وتقرأ مقالا لطه فتعلم أنك أمام رجل يحب الحكي ..." [3]

وإذا كان مارون عبود يمتدح العقاد الناثر ، ويضعه في مقدمة الكتاب العصريين ، ويفضله على طه حسين أسلوبا وفكرا ، فإنه لا يعترف

بشاعريته ويراه في نثره أشعر من نظمه، بل يعده أضعف شعراء مصر المعاصرين له، وشعره يفتقد إلى مقومات الحياة والخلـــود ، وتنعـــدم فيـــه الوسائل التي تمكنه من دوام التأثير على المتلقين ، وتحافظ على جدته ونضارته مهما طال عليـــها الأمد ،فهو آني النفع كأنابيب اللقاح المعقمة ، والتي لا تصلح إلا لوقت محدد ، وتستعمل مرة واحدة ثم ترمى : " ..لا أقابله[4] بناجي وأبي شادي وطه والصيرفي والخفيف وبشر فارس وصالح جودت ومبارك وكل من يقول شعرا بمصر. فكل هؤلاء حتى زكي مبارك خير منه ــ في الشعر ــ وإن عدلت شعراء هذا العصر فهو سكيت الحلبـــة. ودواوينه كأنـــابيب اللقـــاح تصلـــح لوقت محدد.."[5].

ويرى مـــارون عبود أن شعر العقاد لا يرقى إلى مستوى الأشعـــار الرصينة، فهو شبيـــه بالمنظومات التعليميـــة، كألفية ابن مـــالك وأرجوزة اليازجي وغيرها، يقول خيرا منـــه متمرن موهوب [6]، وأنه لو قدم له أحد تلاميذه شعرا كشعر العقاد لصفعه به وأعطـــاه صفرا على حد قوله:"..فوالله، وحق من نفسي بيده، لو قدم لي أحد تلاميذي ورقة كتب عليها مثل هذا الحكي[7] لصفعته بها وأعطيته صفرا .." [8] .

ويسخر مارون من العقاد، ويرميه بالعجز والضعف ، وينصحه بترك ادعاء قول الشعر،لأنه دخيل عليه، ولأنه لن يجد قبولا من أحد ولن يلقى إلا الإعراض، فهو والحال هاته شبيه بقبيحة بشعة المنظر، تحشر نفسها في زمرة الحسناوات، متوهمة أنها تضاهيهن ، وقد تفوقهن جمالا، فإذا نصحها أحد ما، وبيّن لها منزلتها الحقيقية من دون مجاملة، ظنت ذلك حسدا ونكرانا وتمادت في غرورها، وأصرت أن تظهر للناس ذلك الجمال ليتذوقوه ويستمتعوا به ، غيـــر أنها ستجدهم عنها معرضين ولحسنها متجاهلين ،

فتتحدى في غرور مما يبعث على الشفقة عليها : "..إنني لأرحم العقاد رحمتي لقبيحة تحشر نفسها بين الحسان وهي مؤمنة بجمالها..فما أكثر المغرورين في الدنيا ، وأولهم العقاد الشاعر الذي يردد بينه وبين نفسه: "والله متم نوره ولو كره الكافرون [9] " [10].

ويتناول مـــارون بالنقد دواوين العقـــاد الثلاثة :" وحي الأربعيـــن " و"هدية الكـــروان " و"عابر سبيل"، فيعجب بتسمياتها ويراها براقة جذابة، تتصف بالجدة وتضاهي ما يخلعه شعراء العالم المعاصر على أشعارهم من عناوين ، بيد أن ذلك لا ينم عن موهبة شعريـــة ولا يخفي افتقار شعر العقاد إلى النضارة والرواء ، وإلى حرارة الألوان والظلال التي تثيـــر الاهتمام وتسبي المشاعر، فشعره كالحطب الذي جف ماؤه، وتبخر نسغه، بل الحطب أنفع للناس ، فمنه يتخذون وقودا يقيهم البرد، ونورا يبدد ديـــاجير الظلام من حولهم، أما شعر العقاد فيذهب جفاء، وكأنه الدخان يغشى السماء، فيعمي الأبصار ولا تستفيد منه البصائر : " ..لست أجحد تجديده[11] في العناوين فوحي الأربعين، وهدية الكروان وعابر سبيل ،أسماء لا يستهان بها، وليست بالشيء القليل . قد فعل العقاد كشعـــراء العالم اليـــوم، ولكن الملبوس لا يصير القسوس، ولا يغضب العقـــاد أن نصارحه بما في نفسنا، فهذا شعـــر جاف كأنه الحطب اليابس ، وياليته الحطب فيخرج نارا ونورا ؛فما هناك إلا دخان يعمـــيالأبصار قبل أن تأتي السماء .. " [12]

كما يمتدح مارون مقدمات دواوين العقاد ،فيراه فيـــها أستاذا قديرا لاسيمـــا حين يتحدث عن مقاييس الفن وأصوله، ويضع دساتير الشعر وموازينه، ولكنه يأخذ علـــيه أنه يعجز عن المطابقة بين ما يدعو إليه وما

ينظمه، فهو والحال هاته أشبه بكاهن يحفظ الكتب المقدسة ،فيميز الخبيث من الطيب، ويحسن الوعظ والإرشاد ، ولكنه عبد لغرائزه ونزواته ،فلا يعمل بما يطالب الناس به، ولا ينتهي عما ينهاهم عنه [13] : " .. أقرأ مقدمات دواوينه فأصيح : يا بارك الله !أحسبني أمام شاعر لا يجارى، حتى إذا تجاوزت الوصيد رأيت شعرا هزيلا كذئب البحتري ، وظننتني أقرأ دفاتر المتمرنين في الصفوف الوسطى لا نظم أديب كبير .. " [14]

وإذا كان العقاد يرى أن حد الشعر هو" التعبير الجميل عن الشعور الصادق[15] فإن مارون عبود يمتدح هذا الكلام ويراه أحلى من العسل، ولكن صاحبه يفشل في إخضاع شعره لهذا المقياس الذي يرغب الناس فيه ويسفه أشعارهم إذا ما حادوا عنه، فهو وإن صدق شعوره ، فإنه يعجز عن التعبير الجميل مهما حاول :" .. هذا كلام أحلى من العسل، ولكن هل استطاع العقاد شيئا من هذا ؟ نعم، لقد طبق مفصل الشق الثاني، أي الشعور الصادق، أما الشق الأعلى _ التعبير الجميل _ فيعجز عنه ولو عمر مثل نوح [16].

ويذهب مارون إلى أن عجز العقاد عن التعبير الجميل هو الذي يحط من شاعريته، وينزل من مكانته بين الشعراء، على الرغم من ثقافته الواسعة، وفكره الثاقب، وإمكانياته الفائقة على المناقشة والمجادلة والإقناع:".. كاد العقاد يكون منقطع النظير،فهو كثير الإطلاع، ثاقب الفكر يناقش أكابر مفكري العالم، ولكن تعبيره الشعري ليس كما يجب، فانحطت منزلته[17]

وعلى الرغم من اعتراف ناقدنا بإخلاص العقاد لفنه ، وصدق شعوره ،وإمكانياته المتميزة على الإبداع، إلا أنه يرى أن كل ذلك لا يؤهل الأديب لأن يتبوأ مكانة مرموقة بين الشعراء، ولا يدخله ملكوت العبقريين، إلا إذا تسلح بالفصاحة، وحسن التصوير والتعبير،وكسا الفكرة ثوبا من

الجمال والجلال ، وهذا ما تخلو منه دواوين العقاد، لأنه ينظم بعقله وليس لقلبه عمل،والعقل لا يعمل الشعـــر الخالـــد [18] ،ولعل هذا ما جعل شعر العقـــاد أقرب إلى القضايـــا الفكريـــة الجافة منه إلى وجدان الشاعر.

ويزعم مارون أن بيان العقاد لا يطاوعه، ويده لا تؤاتيه على النظم، ومع ذلك يراه مصرا على كتابة الشعر المحكوم عليه مسبقا بالإعدام ، لأنه يولد وهو مصاب بعلتين قتالتين؛ هما ركاكة الأسلوب وضعف الخيال [19] ، ومع هذا يطلب منه أن ينظم ولا ييأس من رحمة الله،وينصحه ساخرا أن يسهر ليلة القدر لعل الفن يتكرم عليه فيفك عقمه الشعري، ويهبه من لدنه وليا يرثه وتقر به عيناه :" .. انظم ولا تيأس من رحمة الله، فلـــولا تسمع مني وتسهر ليلة القدر لعل الفن يهبك من لدنه وليا .."[20].

وواضح أن مارون يسخر من العقاد ويتهكم عليه، وينكر عليه الشاعرية، بل ويرى أنه من غير الممكن أن يبدع شعرا يخلد ذكره ويرفعه إلى مرتبة الفحول، حتى وإن صدقت نيته واجتهد في نظمه، وثابر عليه، والدليل على هذه الاستحالة أنه قد تجاوز الخمسين من عمره، ولكن شعره لم يخضع لسنة الارتقاء والتطور، بل بقي كما كان [21] ومن هنا فمهما عمر الشاعر فإنه لن يبدع شيئا مذكورا، وسيظل قابعا أمام باب ربة الشعر ، يسألها أن تلهمه ولكنها تتأبى، ولـــن ترحـــم عـــجزه وضعفه ولـــو بلـــغ مـــن العمر عتيـــا :".. فالعقاد، متع الله الأدب بطول بقاه ، سيلزم باب ربة الشعر ، ولو فات المئة والأربعيـــن ورده الله إلى أرذل العـــمر ..[22] .

ويخلص مارون إلى أن دواوين العقـــاد السبعة [23] أنتجتها أرض قاحلة في زمن القحـــط والجفاف، فكانت عليلة منهوكة، لا نضارة فيها ولا

رواء، وقصائدها خشنة لا يعرف صاحبها الرقة والحنان، فكان شعره معقدا كذنب الضب[24] وجاءت الدواوين كالبقرات العجاف لا تقوى على الحياة، ولا تسر الناظرين، أو هي كأهل الكهف يتوسم المرء فيهم الحياة ولكنهم فاقدي الوعي، ويحسبهم أيقاظا وهم رقود:" .. إذن للعقاد سبعة دواوين ،لك أن تسميها ضربات بني إسرائيل السبع، أو سبع بقرات فرعون العجاف، أما أنا فهي عندي كرجال الكهف، تحسبهم أيقاظا وهم رقود، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ،ولملئت منهم رعبا .." [25] .

أما عن أغراض الشعر، فالعقاد يبحث عنها بحثا دقيقا ،وينتقيها انتقاء، ثم ينظمها كلاما موزونا مقفى ليملأ به الصفحات ويسد الفراغ على حد قول مارون : "..إن العقاد يفتش عن مواضيعه تفتيشا، بل هو ينظمها ليسد بها فراغا ويملأ بياضا معلوما من الورق يخرجه كتابا للناس.."[26]. وهو يجهد نفسه في ذلك أيما إجهاد، لينتج شعرا جافا تمجه الأذواق، ولا تهتز له المشاعر، ذلك لأن العقاد ينظم بعقله، ويفتقد إلى الموهبة الشعرية، وربة الشعر لم ترحمه فتلهمه ،رغم توسله لها ، واستنجاده بها، ومع ذلك فهو مصر على قول الشعر وتطويعه لينقاد له صاغرا ، كما انصاع له النثر ، ظنا منه أن هذا الشعر عدو لابد من مقارعته وإحكام الخطط للإيقاع به وتسخيره : "..ولكن العقاد عنيد يظن النظم خصما سياسيا لابد له من قهره، فعبثا ننقده وننصحه ،فهو كأسد بشر يظن مقالتي زورا وهجرا [27].

ويزعم مارون أن العقاد قد أسف في الشعر القومي الاجتماعي أكثر من سواه من أغراض الشعر، ويضرب لذلك أمثلة من نظم الشاعر منها قصيدته:" إلى المحسنين " التي يقول فيها : [28]

يا جيرة الإحسان والمحسنين لبيكم لبيكم أجمعين

من يسمع الملهوف حق لـــه _ لا ريب _ أن يسمعه السامعون
من عين شمس جئتكم ناهلا من عين شمس لا تراها العيـــون
مريمكم أخت عيـــاكـــم وكلكم آمـــنة أو أمـــــــين

** * * * * * * * * * * * * * * *

ياغارسي الإحسان في طندتا ما خصبم فيها بمـــا وطيـــن
ظل ظليل وجنى رحـــمـــة ريان يؤتـــى أكله كل حيـــن

ويعقب مارون على البيتين الأخيرين، متهكما على الشاعر فيقول:".. وطندتا لغة في طنطا، وقد تهم علماء اللغات القديمة ، والمولعين بالآثار ..وللشاعر ما لايجوز لغيره ويلي هذا البيت نظم بعض آيات الكتاب العزيز ببراعة يقصر عنها حليم دموس .." [29].ومن قوميات العقاد قصيدته في : "الاستقلال السوري " [30] ، والتي مطلعها :

ربـــع الشآم أعامر أم خال اليوم عيدك عيـــد الاستقلال

ويـــختتمـــها بقولـــه :

وخذوا التهاني من مهنئ نفسه بغد يطالعكم بالاستقلال

فيقف مارون عند عبارات " خذوا التهاني " و "من مهنئ نفسه "و" يطالعكم " ويوجه حديثه إلى القارئ ليقرر في ذهنه أن هذه العبارات تحمل مضامين أخرى غير ما يفهمه الناس وما اعتادوا عليه حين يتبادلون التهاني في أفراحهم، فمعانيها لا يعلمها إلا اللـــه والراسخون في العلم:" ..أما رأيت أنوار الجمال الفني تتدفق من:خذوا التهاني،ومن مهنئ نفسه،ومن يطالعكم ؟ أما المعنى فليس ظاهره كما تسمع وتقرأ كل يوم:نهني أنفسنا ونهنئ بكم

الوظيفة الخ..بل هنالك أسرار دفينة لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلم من شراح العقاد ." [31] .

وواضح أن مارون يتهكم على الشاعر لاستعماله تلك العبارات، التي تدرج على ألسنة العوام، فلا فنية فيها ولا جـــدة ،إذ تلوكها الألسن يوميا آلاف المرات، ومع ذلك يوهم ناقدنا القارئ بأن الجمال يشع منها ، وينبجس من حناياها ، وذلك إيـــغـــالا في التهكم على الشاعر .

وإذا كان العقاد قد شن حملة شعواء على شعر أحمد شوقي عامة ، وعاب عليـــه تقصيره في شعره القومي الاجتماعي خاصة ، فإن مارون يرى العقاد عاجزا عن الإتيان بمثل ما أتى به شوقي، فكيف له أن ينتقده ذلك الانتقاد الغليظ : " عاب العقاد علـــى شوقي شعره القومي الاجتماعي ، وانتقده انتقادا غليظا ، ولما حاول هو أن يقول مثله وقف حمار الشيخ في العقبة .." [32] .

ولا يتشكك مارون في إخلاص العقاد لوطنيته، ولا صدق عاطفته تجاه قضايا أمته، بل يراه مجاهدا ضحى براحته لمحاربة الظلم والجور أنى كان مصدره،فيقف إلى جانب الملهوفين والمضطهدين من بني جلدته ، ولكن عيبه أنـــه لا يحسن التعبير عن عاطفته شعرا ، وإن تمكن من أدائها نثرا بكل نجاح :".. والعقاد مجاهد وطني ، مكين المبدإ ،صلب العقيدة حتى التحجر ،لا يتزعزع يقينه ولا تني همته ،قد ضحى براحـــته وصحته على مذبح وطنيته الصادقة.فلله العقاد مجاهدا صامدا للاضطهاد والمضطهدين وإن لم يحسن التعبير عن عاطفته شعرا ،فهو لا يعجز عن أدائها نثرا، ولكنه يحاول أن يقول الشعر ، وما أراه يفلح ولو عمّر كلبيد .." [33] .

إن نكران مارون لشاعرية العقاد تجعله في بعض الأحيان يتسرع في أحكامـــه النقديـــة، ويكتفي بالانطباع من دون تحليل أو تعليل ، كأن يرى العقاد عاجزا عن الهجاء ، لأن هذا الغرض لا يحسنه إلا من أوتي موهبة شعرية فذة، وشاعرنا قد حرم منها لأنه كان غائبا يوم قسمة الحظوظ على حد قول مارون [34] .

وصحيح أن الهجاء من أظهر أغراض الشعر العربي ،وهو فن يعسر على كثير من الشعراء، ذلك لأنه يتطلب إحساسا مرهفا وفطنة في ترصد اللقطات التي يروم الشاعر تصويرها، ومقدرة فائقة على تركيب الصور، لا كما هي في الواقع " وإنما يخلق صورا جديدة ،ويبتكر زوايا معينة يركز عليها، فلابد أن يمتاز بقـــدر كبير مـــن الحساسية والمهارة في تركيب الصور، وتآلفهـــا أو تباينها،ففي الائتلاف جمال، وفي التباين جمال ،ومن هنا عسر فن الهجاء على كثير من الشعراء، لأنه لا يقوم على نقل العالم الخارجي، ولا يعتمـــد اعتمادا كبيرا على المهارة اللغوية، وإنما يخلق الشاعر خلقا آخر متباينا، أو مخالفا للعالم المشاهد، ومعتمدا على علاقات دقيقة يتخذها الشاعـــر محاور فنية للبناء الشعري .." [35] . غير أن مارون لا يبين ضعف العقـــاد وهناته في هجائـــه، وإنما يطلق حكما عاما من غير تعليل ،كأن يقول : هذا الهجاء لا يقرأ، وهنا يتساءل القارئ هل كان هجـــاء العقاد فاحشا مقذعا ؟ أم كان أسلوبه فيه ركيكـــا مبتذلا ؟ أم كانت صوره بسيطة ساذجة، ومعانيه سطحية مكررة لا جدة فيهـــا ؟ تلك أسئلة لا يجيبنا عنها مارون ،وإنما يكتفي بحكمه الانطباعي .

ويرمي محمود سيف الدين الإيراني العقاد ببعده عن الحياة المصرية، وعدم استيحاء موضوعاته من بيئته، وتلوين شعره بموحيات مجتمعه. ويرد مارون عبود على الإيراني وكأنـــه يقف إلى جانب الشاعر ليدفع عنه التهمة ويبرئ ساحته مما رمي به فيقول :" .. ولكن إذا لم يكن العقاد وثيق الصلة بالحياة المصرية، فكيف نظم "هدية الكروان"وقال في مقدمته،وهو فيها أشعر من نظمه:ومن العجيب أنك لا تقرأ صدى الكروان فيما ينظم الشعراء المصريون ، على كثرة ما يسمع الكروان في أجوائنا المصرية مـــن شمال وجنوب .. " [36] .

والحقيقة أن مارون يتهكم على العقاد ، فيتساءل عن عدم اقتناع الكاتب محمود سيف الدين بارتباط ديوان" هدية الكروان " بالحياة المصرية، مع أن العقاد يعيـــب على المصريين عدم احتفالهم ببيئاتهم، ويضع لهم ديوانه " هدية الكروان " ويصدره بمقدمة يدعو فيها إلى الاهتمام بالبيئة ونقلها وتصويرها:"..لماذا لم يعتد الإيراني بهذا الديوان الغالي ويحسبه صلة وثيقة بالحياة المصرية ..؟"[38] .

ويلفت مارون انتباه الإيراني إلى قصيدة [39]للعقاد تبين بوضوح صلة الشاعر ببيئته وأنه فيها فاق فرويد في تحليل نفسية الأطفال، إذ تكلم بلغتهم، و عبر عن أحاسيسهم و مشاعرهم ، فقال مارون متهكما : ".. هب أننا رضينا بهذا العليل [40] فهل للأستاذ الإيراني أن ينبئنا من أين استوحى العقاد قصيدته الفريدة الخالدة ودرته العصماء التي مطلعها :

البيلا البيـــلا البيـــــلا ما أحلى سلب البيـــــلا

والله ما أدري كيف يكون ناظم هذه الرائعة قليل الشعــور بالحياة المصرية ... وقد فاق فرويد في تحليله نفسية الأطفال، وتكلم بلغتهم في شعره المضحك المبكي المنوم كآلة الفارابي .. " [41] .

وواضح أن مارون يتهكم على العقاد، وإن بدا مدافعا عنه، فهو يستشهد بأضعف شعره ولا يرضى عن أغراضه، فيراها سقيمة عليلة : ".. إن شعره حكي لا أكثر ولا أقل، وأغراضه تخرج من شق قلمه هزيلة كالمسلول، يريد أن يخدع أبصارنا بعناوينه لتقوم الساعة، بيد أن الساعة لا تقوم لأن العقاد لا يقول شيئا.."[42].

ويؤاخذ مارون العقاد على استعماله لبعض العبارات التي تدرج على ألسنة العامة، أو هي قريبة مما يتلفظون به،كما يعيب عليه الألفاظ السوقية المبتذلة بالتداول،لكثرة ما لاكتها أفواه المتحدثين،كقوله:

أحسنتم الصبر والعقبى لمن صبروا نادى البشير ،فقولوا اليوم وائتمروا

ويعلق ناقدنا على البيت بقوله : : " .. ما زاد في صدر براعة استهلاله عن الكلمة الحائرة في أفواه الناس:من صبر ظفر، عفوا، بلى إنه قالها بلغة حلزونية عودناها شيوخ أدباء مصر في نثرهم الفني ..أما العجز فهو أدنى إلى اللغة العامية منه إلى الفصحى، فما رأيك يا أخي ب : " قولوا اليوم " ؟ أليست أخت احكوا اليوم ؟.

وما قولك في " ائتمروا " بعد " قولوا اليوم " أما هما بيضتا دجاجة واحدة ؟..[43] . ويطلب مارون من العقاد أن ينزه شعره عن مثل تلك التعابيــر والألفاظ وعليه أن ينتقيها انتقاء و يختارها لتكون مناسبة

لموضوعها، فيها عذوبة وفخامة وخالية من الغرابة والتنافر، فها هو يقف عند قول العقاد: [44]

أمانة تلك في أعناقكم عظمت و بالأمانة فليعظم من اقتدروا

ويعلق عليه ساخرا:"الشعر يا أميرنا يجب أن ينزه، في مثل هذه المواقف، عن مثل هذه التعابير...أأنت تحمل سلاما لغائب حتى تتكلم كعجائز لبنان: أمانة في رقبتك سلم على فلان؟..."[45]

ويتناول مارون قصيدة العقاد في رثاء سعد زغلول[46]، والتي يقول فيها[47]:

عرف النفي حياة و مماتا وأصاب النصر روحا و رفاة
كلما أقصوه عن دار له رده الشعب إليها و استماتا
كيف يجزيه افتياتا وهو من كان لا يرضى على الشعب افتياتا

ويرى ناقدنا أن القصيدة عبارة عن سرد أخبار بأسلوب جاف، ليس فيها من ارتعاشة الشاعر شيء، رغم واقعية الحدث، وأنها نثر إذا استثنينا الوزن و يعلق على بعض ألفاظها بقوله:"...الشاعر لا يقول: كلما أقصوه عن دار له. إن الشعر لا يقبل كل الألفاظ، فبلعومه أضيق من بلعوم النثر، ومعدته لا تقبل "فتة" العقاد..."[48]

ويتابع مارون هنات الشاعر من حيث استعماله لبعض الألفاظ في القصيدة عينها كقوله[49]:

جردوا الأسياف من أغمادها ذاك يوم النصر لا يوم الحداد
ارفعوا الرايات في آفاقها أين يوم الموت من يوم المعاد
لا يلاقى الخلد بالحزن و لا يكتسي الفتح بجلباب السواد

ذاك يوم ما تمـــناه العـــدى بـــل تـــمنـــاه ولاء و وداد

فانفضوا الحزن بعيدا واهتفوا فاز سعد وهو في القبر رماد

ويقف مارون عند بعض ألفاظ البيتين الأخيرين وما يليهما موجها حديثه تارة للشاعر وطورا للقارئ ليشركه معه في الحكم على العقاد، فيقول:[آه من "الولاء و الوداد" ما أبغضهما إليّ في هذا الموطن يا أستاذ! ...فهذه"البعيد" بعيدة عن الشعر بعد العقاد عن الفن، ليته نفضها مع الحزن، ولكنها ستحلـــو حين نرى أبشع منها و أشنع كقوله:

المعيقون تنحوا جانبا آخر الأمر و سعد في البنـــاء

أتعرفهـــا أم أدلك عليها ؟ إنها آخر الأمر وأختها المعيقون ، و سأريك أبشـــعيـــن وأشنعين...قال:

هو أيضا قد طوى ليل الردى وطوى ليل الغواشـــي والكذاب

أظنك عرفت أننـــي أعني " هو أيضا " أمـــا "الكـــذاب " فلا ترعك ،فهـــي مـــن تجديـــد بعض المصريين .." [50]

ويصف مارون ألفاظ العقاد بالبشاعة ، وتارة أخرى باليبوسة، ويشبههـــا بالمومياء المحنطة والتي لا توحي له بشيء ، وطورا يصفـــها بأنهـــا ثقيلة متنافرة قد يقبلها النثر ،ولكنها لا تصلح للشعـــر ولا تناسب مواضيع الشاعر وأغراضـــه ،وقد تضيق بـــه فلا يحســـن استعمـــالها ويعقدهـــا [51]، وأحيانا أخرى تكون صلبة كالعقاد،سوقية وضيعة لا تتسع لأخيلة الشعراء وتهويماتهم :" .. كل ألفاظه [52]وضيعة حقيقية لا تتسع لأخيلة الشعراء ، فالشـــعر عنـــده انطباق أضلاع وزوايا.."[53].

ويتناول مارون صور الشاعر وتشابيهه، فينعتها بالخرابيش، كوصف العقاد لخليج ستانلي [54]، و وصف المستحمات فيه بقوله : [55]

تلك الطويلة كالقصيرة والسماحة كالصلف

برق السحاب طوالها وصغارها برق خطف

والسهم يقصد إن جثا رامي السهام أو اشترف

****

ألقى لهن بقوسه قزح وأدبر وانصرف

عيد الشباب فلا كلا م ولا ملام ولا خرف

ويحجم ناقدنا عن التعليق على الأبيات وعلى القافية الأخيرة بدعوى أن غيره قد أفاض في تحليلها، ولكنه يقف عند قول الشاعر :

قف في عبورك غير مأ مور ومن يعبر وقف

متصورا أن العقاد يوجه إليه الحديث، فيجيبه ساخرا وواصفا قافيته بأنها تستغيث بموت المتنبي وعوده، فهي نتنة لا يستطيع الإنسان أن يقترب منها أو يتلمسها إلا بعود و عن بعد، مع أنها معروضة عليه ليتحسس جمالها ويتذوقها:"..تعذرني وأنت كريم ،فقافيتك تستغيث بموت المتنبي وعوده [56]..أرأيت الخرابيش التي يسميها هذا [57] الفقير تصويرا ؟ [58] .

ويرى مارون أن الشاعر الحق هو من أوتي مقدرة فائقة على التصوير، فلا يكتفي برصد الظواهر المرئية ونقلها، وإنما عليه أن يجسد الجماد وينفخ فيه من روحه فيصيره حيا، وهو من يأسر المشاهد الهاربة ويحبسها بين دفتي كتاب تنبض بالحياة، وهذا ما لم يتمكن منه العقاد لأنه لا يفهم من الشعر إلا أنه كلام ".. أبعد غاياته مطابقة الصرف والنحو والعروض .. " [59]

ومن هنا يعقد موازنة بين تصوير العقاد في وصفـــه للمستحمات في الأبيات السابقة، وبين تصوير أحمد شوقي الذي يجسد الجماد و يبعث فيه الحياة كقوله[60]:

أيهـــا المتنـــحي بأســـوان دارا كالثريـــا تريـــد أن تنقضـــا
قف بتلك القصور في اليم غرقى ممسكا بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين في الماء بضـــا سابـــحات به و أبدين بضـــا

ويخلص مارون من تلك الموازنة إلى القول متهكما بأنه"لا فرق بينهما سوى **أن أحمد شوقي يحيي، وعباس العقاد يميت**".[61]

ويقف مارون عند قصيدة العقاد الغزلية"فيك من كل شيء" و التي مطلعها[62]:

فيك من شمس الضحى العين التي ترسل اللمح مضيئا في الظلام
فيك من بدر الدجـــى أحلامـــه حين يسري نائما بين نيـــام

****

فيك من نار الحيـــاتين الهـــوى هل حياة الحي إلا من ضرام
والـــذي أرهبـــه وا أســـفـــا هجرك المدعو بالموت الزؤام

ويتهكم مارون على هذا " الغزل الفلسفي" كما يسميه ويعدد صفات محبوب العقاد بقوله مخاطبا القارئ :((...وفي هذا الحبيب شيء من هندسة علوية لم أذكرها لك. وفيه من الشاعر و مني ومنك، ومن جميع النـــاس، ومن كل موجود وموعـــود توأم –هذا شعر– فهو إذن أزلي أبدي وسع كرسيـــه السماوات و الأرض ... فليت الشاعر لم يسه في هذه القصيدة "النورانية" عن ذكر كل ما في هـــذا الحبيب اللذيذ. ليته نظم لنا شعرا كل المقادير التي

فيه من كربون و كلسيوم و حديد و يود ،ومنغنيزا، وفوسفور.. بل ما ضره لو ذكر أيضـــا المواد المركبة مثل كربونات البوتـــاس, وكلورير الصوديـــوم، ليرى الغناء العظامـــي، والكروماتين و النيكلايين ليثق من متانة خلاياه ونشاطها، و الألبومين وغيرها ليرى كيف دهنه وشحمه، والغليكوجين ليرى كيف تكون كبده أرقيقة أم غليظة، فيأخذ حذره ويأمن غدره..ناهيك بما في هذا من فائدة جزيلة للطلبة إذ يتعلمون أهم"دروس الأشياء"بسهولة، فالشعر سهل حفظه...)) [63].

وقد يتبادر إلى ذهن القارئ هذا الأسلوب الجاحظي في السخرية و التهكم على العقاد،ولا عجب في ذلك،فالجاحظ يعد إمام مارون عـــبود، ومن غير المستبعد أن يتأثر المأموم بالإمام و بأسلوبه لاسيما وأن مارون يصرح بإعجابه الشديد بأب الأدب العربـــي كما لقبه.

ويزعم مارون أن العقاد يهيم مع الشعراء ولكنه غيـــر شاعر، ذلك لأنه يقول الشعر كالزجال اللبناني، وإن كان هذا يفوقه شاعرية وتصويرا و عاطفة[64]،فالزجال عادة مـــا يبدأ كل دور بآخر شوط من الدور السابق، و هذا ما يفعله العقاد إذ يقول[65]:

هذه الروعة هل تجمعـــها في مدى يوم لحوم و عظام
لا و ربي بل دهور غبرت قبلما تتقنها الأيدي الكرام
قبلما تتقنها الأيدي التـــي نسقت أنواعها و هي حطام
إن نفوني اليوم من دنياهم وأباحوا لي من الزاد المـــرام
ثم قالوا ما تشأ منا فخذ قلت هذا و على الدنيا السلام
قلت هذا وتقدمت إلى هوة الغيب وفي الثغر ابتسام

و هكذا فمارون يفضل الزجل العامي على شعر العقاد ،والذي لم تشفع له فصاحتـــه لأن الزجال لا يقول : قبلما تتقنها الأيدي الكرام ،ولا يذكر حبيـــبه كالقصاب ،فيقول:لحـــوم وعظام [66] . ثم إن صور العقاد لا تقوم إلا متكاسلة كأنما شدت إلى الأرض شدا ، أو لفحتها حرارة شمس مصر فجاءت رخوة لا تقوى على التماسك : "..يعلم العقـــاد أن المفاجآت من عناصر الشعر الجوهرية، فيحاول خلقها ، فتأتي صوره رخوة متأثرة بحرارة الإقلـــيم .." [67] .

ويرى مارون أن العقاد عاجز عن خلق التعابير والمعاني، وأنه يسطو على غيره من شعراء العرب والغرب فيسلبهم معانيهم ، أما إذا كف عن سرقاته واعتمد على شاعريته أو أرجعنا ما أخذه إلى أهله، فسيكون من المفلسين، ولـــن يبـــقى له شيء يذكر:".. ولو أرجعنـــا تفاريقه لأصحابه لم يبق للعقـــاد شيء.." [68].

وكثيرا ما يلح مارون على سرقات العقاد ليجرده من الإبداع والشخصية، إذ يراه قد أخذ عن ابن خلدون الشيء الكثير، وتأثر بأسلوبه في المقدمة، ويمثل لذلك بمقطوعة للشاعر عنوانها : " عدل الموازين " [69] حيث يقـــــول:

"..**إن في شعر عقادنا شيئا كثيرا من نثـــر ابن خلدون ، والعقاد متـــأثر جـــدا بأسلـــوب صاحب المقدمة وعلومها، وقد تكون هي التي أوحت إليه"عدل الموازين" فقد جاء فيها مايشبه ذلك** .."[70] .

وليس العيب في أن يتأثر الخلف بالسلف، فذاك أمر مشروع، ولكن العيب أن تنعدم شخصية الشاعر، وأن يأتي بمعان أقل جودة وصـــدقا مما سبق إلـــيه فهاهو العقاد يغير على قول ابن الرومـــي في الهجاء :

علق الله في عذاريك مخلا ة ولكنها بغير شعـــير

ليقـــــــول:

أليس كفى هذا السواد فزدته سواد غراب في لحاك معلق

ويأخذ مارون على شاعرنا هذا السطو على معاني القدماء ،كما يؤاخذه على خطئه من حيث المعنى فللرجل لحية واحدة لا لحى[71].

ويحاول العقاد أن يقبح ما أجمع الناس على حسنه كما فعل ابن الرومي في هجائه للورد، وابن المعتز في هجائه للقمر ، فيفضل شاعرنا منديل الكتان على منديل الحريـــر زاعما أن الحرير من صنع الديدان ، وهي تذكر الإنسان بالموت والقبر، فيجمد بذكرهما فيـــقول : [72]

فماذا تنسج الديـــدان من ذكرى لمن سعدا

وما الديدان والذكرى ومن ذكر اسمها جمدا

ويسخر مارون من العقـــاد ويتهكم عليه ، راميا تقليـــده بالبشاعـــة، وفلسفته بالثقـــل فيقول:"..قلت : إذن ومن يرى التفاحة يذكر الزبل ، ومن يأكل البيض يذكر ما يذكر..وأخيرا، والذي يراني ويرى العقاد مثلا يذكر أشياء كثيرة ... فما أبشع تقليد العقاد وأثقل فلسفته، يريد أن يجاري ابن الرومي بهجو الورد ، وابن المعتز بهجو القمر ، وإلا فما يدرينا أنه شاعر كبير..؟ "[73] .

وبفضل حافظة مارون القوية والعجيبة ،فإنه كان يسيرا عليه أن يكتشف السرقة ، وأن يشير إلى مصادرها بكل دقة، كما لا يتحرج في

التدقيق في الأخطاء والهنات مهما كانت واهية، خاصة إذا انتقد علما كبيرا ، فها هو يزعم أن العقاد قـد استوحى بعض شعره من قصائد شكسبير ،وفي هذا يقول : " .. أنطق العقاد البيوت بكـل رخيص مبتذل كما فعل في قصيدته : " فيك من كل شيء" التي أزعم أنه استوحاها من زميله شكسبيـر في قصائده الغزلية sonnets رقم53 و91 ، كمـا استوحى " ربة شعره " من رقم 903 ، و" طلع الصبح كئيبا عاطلا "من رقم 97 و "الظن بالأهل والحرم" من رقم 93 .." [74].

وإذا كان العقاد وزميلاه ؛ المازني وشكري، قد هاجموا الشعراء الاتباعيين، وشنوا حملة عنيفة على أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وغيرهما من كبار أدباء العصر، واستطاعوا أن يوجهوا الشعر العربي الحديث وجهة أكثر خصبا وعمقا، ودعوا إلى تجديـده فإن مارون عبود يضحكه تجديدهم القائم على الأوزان والقوافي والأغراض، لأنـه يرى الشعر في غير ذلك، إذ يقـول :"..يضحكني جدا أن أراهم ينشدون خمرة التجديد من معصرة الأوزان والقوافي والأغراض ، فما هناك الشعر ،إن النفس واللسان يخلقان الفن ..."[75].

وهكذا يسخر مارون من العقاد الشاعر،فيتهكم عليه، ويحط من شاعريته، ويراه يشبه الشعراء ولكن في النقص ، أما الكمال فلن يصله الشاعر ،حسب ناقدنا ،ولو بلغ من العمر عتيا : "..أما نحن فما نراه يشبه الشعراء إلا في النقص ، ويقصر عنهم في الكمال .." [76].

ويواصل مارون حربه على العقاد للحط من شاعريته ، ولا يراه يتفـوق على غيره من الشعراء إلا في كـون أروع شعـره دون الـوسط،

و غثه لا يماثلـــه غث، وشعره لا يؤدي فكرته وليس له غـــد:" ..وموسيقاه موسيقى صنج مشقوق .. وأغلب ما في شعره أنه كله باج واحد . أروعه تحت الوسط ، و ؟أرذله دون كل رذل، فهو بهذا يـــبذ الشعراء طرا .. " [77]

ويخلص مارون من العقاد وشعره إلى القول متهكما :" .. والعقاد ـــ كما قلت ـــ ممن يرفعهم الله إلى أسفل ، في النظم .." [78] .

وصفوة القول إن مارون عبود يسخر من عباس محمود العقاد ويتهكم عليه ويحط من شاعريته ويراه أضعف من قال شعرا في مصر، إلا أنه مع ذلك يعترف بفضله ومكانتـــه وعظمته كمفكـــر، ويعجب بمثابراته وإيمانه الراسخ بإمكانياته الفنيـــة ،وعـــدم استسلامـــه لضعف شاعريتـــه، وإيمانه القوي بأن العاقبة له، وأن الفوز سيكون حليفه : " .. وإن يعجبني في العقـــاد شيء ،فهو هـــذا الإيمان المكين بفنه ، إنه كأولئك المتهجدين في دنيا الفن يقومـــون الليل إلا قليلا، على رجاء الساعة التي يحملون فيها كتابهم بيمينهم .. " [79] .

هوامـــش و مراجـــع

1- مارون عبود : مؤلفات مارون عبود ،المجموعة الكاملة ، دار مارون عبود، دار الثقافة ،بيروت لبنان ،الطبعة الثانية ،1399/1398 ه- 1979/1978 و مجلد 5 ،كتاب :دمقس وأرجوان ،صفحة 31 .

2- انظر : مارون عبود ،المجموعة الكاملة،مج 4 ،ك : في المختبر ، ص: 57و58 و59 .

3-المصدر نفسه ص: 59 .

4- الضمير عائد على عباس محمود العقاد .

5-مارون عبود ، مج 4 ، ك : على المحك ،ص 236 .

6-المصدر نفسه ،ص:176 .

7- إشارة إلى أبيات من قصيدة "عصر السرعة" للعقاد.

8-المصدر نفسه، ص 228.

9-القرآن الكريم سورة الصف،الآية 8.

10-مارون عبود ، مج 4 ، ك : على المحك ،ص212.

11-الضمير عائد على العقاد.

12-مارون عبود، مج 4 ، ك: على المحك،ص195.

13-المصدر نفسه،ص :193 و 194 .

14- المصدر نفسه ،ص :194

15- المصدر نفسه والصفحة نفسها .

16- المصدر نفسه والصفحة نفسها .

17-نفسه ، ص:197 .

18-انظر : المصدر نفسه ص : 183 و 235 .

19- نفسه ، ص: 182 .

20- نفسه ،ص :195 .

21- نفسه ، ص:194

22- نفسه ، ص:193 .

23- للعقاد مجموعة من الدواوين هي : "يقظة الصباح " 1916، و " وهج الظهيرة "و " أشباح الأصيل " و" أشجان الليل " وقد جمعت هذه الدواوين الأربعة في مجموعة واحدة طبعت عام 1928 بعنوان " ديوان العقاد " وله " وحي الأربعين " و " هدية الكروان " 1933 و " عابر سبيل " أعاصير مغرب " 1942 و " بعد الأعاصير " 1950 و " ما بعد البعد " وله ديوان يقتبس من كل هذه الدواوين نشره بعنوان " ديوان من دواوين " . ومارون يتحدث عن الدواوين السبعة الأولى .

24- مارون عبود ، مج 4 ،ك : على المحك ،ص: 206 .

25- نفسه ،ص : 193 .

26- نفسه ، ص:198

27- نفسه، ص:210و211 .

28-قالها الشاعر في احتفال خيري بطنطا المصرية سنة 1930 ،وصدر بها فصل " قوميات واجتماعيات " من ديوانه " وحي الأربعين " .

29- المصدر السابق ،ص :211 .

30- قالها الشاعر في ذكرى استقلال سوريا سنة 1930 وضمنها ديوانه "وحي الأربعين "

31- المصدر السابق ،ص :211 .

32- نفسه والصفحة نفسها .

33-مارون عبود ،مج 4 ،ك : على المحك، ص:174 .

34-المصدر نفسه ص: 219

35-د عباس بيومي عجلان : الهجاء الجاهلي صوره وأساليبه الفنية، دار المعارف بمصر ،1982 ، ص:281 .

36- في مقـــال له بعنوان " خصائص الأدب والأدبـــاء " نشره في " المجلة الجديـــدة " لسلامـــة مـــوسى .

37- مج 4،ك : في المختبر، ص36 .

38- المصدر نفسه ص:36 .

39- قصيدة العقاد" البيلا " التي يقول فيها على لسان طفلة :

البيلا البيـــلا البـــيلا ما أحلى سلب البيـــلا

هاتوا البـــيلا واسقوني هاتـــوا البيلا داوونـــي

مالي وما للشكولاتـــا تحشي لي تـــاتـــا تاتـــا

40- يشير إلى ديوان العقاد " هدية الكروان "

41- ك: في المختـــبر ،ص: 36و37 .

42-مارون عبود ، مج 4 ،ك : على المحك ، ص:233 .

43-نفسه ،ص :173

44- نفسه، ص: 177 .

45- نفسه ، ص: 177و178 .

46- "زغلول سعد " (1927/1857) حقوقي مصري من كبار المجاهدين في سبيل الاستقلال ، تعلم في الأزهر حيث اتصل بجمال الدين الأفغاني

ومحمـــد عبـــده . تصدر الوزارة المصرية 1924 ، وترأس مجلس النواب، أسس الحزب "السعدي" أو " الوفد " ضريحه في القاهرة ، له خطب معروفة . " عن المنجد في اللغة والأعلام دار المشرق ، بيروت ، ط:23، د ت ، ص337.

47- مارون عبود، مج 4 ،ك : على المحك ، ص:180و181 .

48-نفسه ، ص:180 .

49-نفسه ، ص:181 .

50-نفسه ، ص:181و182 .

51-انظر نفسه ،ص:175و177 و202 و233 .

52-الضمير عائد على العقاد .

53- المصدر السابق ، ص:233 .

54- خليج ستانلى أوحمامات البحر في الإسكندرية بجمهورية مصر العربية .

55- مارون عبود ،مج4 ، ك: على المحك ،ص:204 .

56-إشارة إلى قول المتنبي في هجـــاء كافور الإخشيدي :

مـــا يقبض الموت نفسا من نفوسهم إلا وفي يده من نتنهـــا عـــود

57- إشـــارة إلى عباس محمود العقاد .

58- المصدر السابق ،ص:204

59-نفسه ، ص:205 .

60- نفسه ،ص:204 .

61- المصدر نفسه والصفحة نفسها .

62- نفسه ، ص: 207 .

63-نفسه ، ص: 208 .

64- نفسه ،ص: 209 .

65- نفسه ،ص:نفسها .

66- المصدر نفسه والصفحة نفسها .

67- المصدر نفسه ص:233 .

68- نفسه ،ص:212 .

69-ضمنها الشاعر ديوانه " وحي الأربعين " وفيها يقول :

إنـــا نريد إذا ما الظلم حاق بنا عدل الأناسي لاعدل الموازين

عدل الموازين ظلم حين تنصبها على المساواة بين الحر والدون

ما فرقت كفة الميزان أو عدلت بين الحلي وأحجار الطواحين

70-المصدر السابق ،ص :216.

71- نفسه ، ص: 219 .

72- نفسه ، ص:217 .

73- نفسه ،والصفحة نفسها .

74-نفسه ،ص:225،224 .

75- المصدر السابق ص:196 .

76- نفسه ،ص: 214 .

77- نفسه ،ص :213.

78-المصدر نفسه ،ص:222.

79- نفسه، ص:197 .